شعبان حافظ

«كيف يمكن للناس أن يأمنوا على أنفسهم إذا كان الأمن نائماً، فبرغم المراقبات والأرصاد استطاع الشيوعى شعبان حافظ أن يهرب إلى خارج البلاد، ويسافر إلى موسكو.. ليعود منها وقد أصبح لينينا صغيرا»
(المقطم ١٩/٣/١٩٢٧)

ما المسافة التى يقطعها المناضل السجين كى يصبح أصغر سجين شيوعى ثم يصبح أكبر سجين شيوعى.

فالسجين الذى وقف فى قفص الاتهام فى قضية الجناية رقم ٣٩٣ محرم بك الإسكندرية لسنة ١٩٢٤. وكانت سنه ١٨ عاماً (ولد ١٩٠٥)، هو نفسه الذى وقف متهماً أمام المجلس العسكرى العالى برئاسة الفريق هلال عبد الله هلال عام ١٩٥٩ فى ذات القفص وفى ذات المحكمة بالإسكندرية ليكون أكبر المتهمين سنا. وشعبان حافظ مساعد صيدلى من الإسكندرية التقى مع الموج الثائر للحركة الاشتراكية الذى اجتاح الإسكندرية فى بداية عشرينيات القرن الماضى، وانضم إلى الحزب الاشتراكى منذ اليوم الأول. ومن الإسكندرية انتقل إلى الزقازيق ليعمل هناك وليسهم فى تأسيس نقاط ارتكاز للحزب فى هذه المدينة. وعندما وقع الحزب فى دوامة الاختيار بحثا عن إجابة للسؤال الصعب هل يصبح حزبا اشتراكيا إصلاحيا أم حزبا ثوريا على النسق الشيوعى؟ انسحب من الحزب كل من اعترض على اختيار النسق الثورى وتسمية الحزب بـ «الحزب الشيوعى»، ومن الذين بقوا وتحمسوا للتوجه الجديد مجموعة من الشباب صغار السن شعبان حافظ ومحمد الصغير (حلاق من شبين الكوم) وعبدالحفيظ عوض (مدرس بطنطا) ومحمود إبراهيم السمكرى (سمكرى بالبلقطية) وعبدالحميد تره (كاتب بمحلة أبو على).. ومع إعادة تشكيل اللجنة المركزية للحزب بعد انسحاب سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ود.

على العنانى وغيرهم.. تقرر ضم هذه المجموعة من الشباب مكان من انسحبوا.

وبعد موجة الإضرابات العمالية العاتية فى الإسكندرية صدر فى ٣ مارس ١٩٢٤ قرار بحل الحزب وقبض على أعضاء اللجنة المركزية ومنهم شعبان حافظ، قدم منهم للمحاكمة أحد عشر متهما واحتل اسم شعبان حافظ رقم (٩) فى قرار الاتهام. ووقف الفتى الصغير ليستمع إلى التهمة الموجهة فى مرافعة النيابة العامة: «اتفق جنائياً بأن اتحد مع آخرين على ارتكاب الجنايات والجنح المبينة فى قرار الاتهام وعلى الأعمال المجهزة والمسهلة لارتكابها ألا وهى جنايات القتل العمد ونشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور المصرى الأساسية، وتحديدا تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب ووسائل أخرى غير مشروعة»، وأيضاً «تحريض طائفة العمال وصغار الفلاحين على بعض أصحاب العمل والملاك، والتحريض على عدم الانقياد للقوانين، وتحريض العمال على استعمال الوسائل غير المشروعة فى الاعتداء على حق أصحاب الأعمال». كان الفتى الأصغر سناً يصغى إلى خطاب وكيل النيابة وهو يبتسم.. إنها ذات الابتسامة التى واجه بها كل الصعاب بامتداد تاريخ نضال طويل استمر حتى رحلة التعذيب الوحشى فى سجن «أبو زعبل» فى الزمن الناصرى. وذات الابتسامة التى ارتسمت على وجهه وهو واقف فى ذات القفص بعد خمسة وثلاثين عاما ليستمع إلى قرار الاتهام.. وهذه المرة من المدعى العسكرى. وفى المرة الأولى يشفع له صغر سنه فيحكم عليه بالسجن ستة أشهر. ويفرج عنه ليختفى عن أعين البوليس ويواصل نضاله السرى فى القاهرة كمحترف ثورى ويقيم فى ٩ شارع الكرداس بعابدين، محاولا الإسهام فى إعادة تكوين الحزب، ويشارك بحماس فى النضال السرى وأيضاً فى النضال العلنى (إصدار مجلة الحساب ـ تأسيس لجنة الدفاع عن العمال والفلاحين).

ويعلو صوت الحزب فى احتفالات مهيبة بعيد العمال (أول مايو ١٩٢٥) ويستيقظ الأمن مرة أخرى وتنشر «الأهرام» (أول يونيو ١٩٢٥): «وصلت إلى الحكومة المصرية أخبار عن مجهودات الشيوعيين والمساعى التى يبذلونها لبث الدعوة الشيوعية فى مصر، وأمس حوالى الفجر، شن البوليس حملة فى القاهرة والإسكندرية ففتش فى المدينتين مساكن طائفة كبيرة من الأشخاص المشتبه فى انتمائهم إلى الشيوعية».

وكان شعبان حافظ رقم (٩) فى قرار الاتهام (راجع النص الكامل لقرار الاتهام فى:

د. رفعت السعيد ـ تاريخ الحركة الشيوعية المصرية – المجلد الأول ـ ص٥٨٩). ويحكم عليه بالسجن عاماً (الأمل – ١٩٢٦/١/٢٣) ويقضى مدة العقوبة. ويفرج عنه ليختفى مرة أخرى عن أعين البوليس.. ولا يلبث أن يصل نبأ وصوله إلى موسكو. وهناك فى «جامعة كادحى الشرق» حقق حلمه الكبير فى أن يدرس الماركسية دراسة أكاديمية. وبينما كان شعبان الذى اتخذ اسما حركيا هو «العجوز» فى موسكو صدر مرسوم ملكى فى ٢٠ أغسطس ١٩٣١ بإسقاط الجنسية عن ثمانية من المناضلين الموجودين فى موسكو، وكان اسم «العجوز» بينهم (راجع النص الكامل للمرسوم ـ فى د. رفعت السعيد – المرجع السابق ـ ص٥٩٢).

لكنه، وكما سافر سراً عاد سراً إلى أرض الوطن. وبعد سنوات قضاها مختفيا عن الأنظار قبض عليه فى الزقازيق (الأهرام– ١٩ يونيو ١٩٣٥). ومرة أخرى يخرج من السجن ليعاود النضال وكان قد أصبح السكرتير العام للحزب وفى نهاية الثلاثينيات يلتقى الموج الماركسى القديم بقيادة «العجوز» مع الموج الجديد. العجوز قبل ببساطة موقعا غير قيادى فى التنظيم الواحد وواصل النضال. ليقبض عليه عام ١٩٥٩ وعلى وجهه ذات الابتسامة، وفى سجن أبو زعبل يتحدى بابتسامته الجميلة التعذيب النازى البشع.. وإلى سجن الواحات يرحل، وهناك تتحقق آخر أمنيات «العجوز» أن يرتاح مبتسماً فى أحضان رفاقه. ويكون أول سجين يشيع فى جنازة مهيبة داخل جدران السجن. ملفوفاً بعلم أحمر. شيعه مئات من السجناء الشيوعيين وهم ينشدون:

«سلام يقدمه فى فخار
جنود الكفاح لأبطاله
إلى أكتوبر والثوار
إلى يوم مايو وعماله
لكل شجاع إلى الانتصار
مضى فى ثبات إلى حتفه»